

يَقْظَرُ الضَّمِيمِ

لبوريس فيليبوف
بقلم الأستاذ محمد لطفي جمعة

عن نفسه في كل مساء باللغو
في الأندية والملاعب والحانات
ويحتم ليانه بالخاصرة
والمعاقرة - وأحياناً بالمقامرة
على المائدة الخضراء فيربح
ما يربح ليعوض نفقات
سهرته ، أو يخسر ما لا يؤثر
في ثروته . ولم يكن متزوجاً
لأنه ما زال في عنفوان

الشباب ، ولم يلق في الأماكن
التي كان يغشاها تلك التي تتغلب
على عوامل المزوجة في نفسه ، بل
كان يكتفي باللواتي يقضين لباتته
في لقاء صاحب ، تسبقه نشوة
الحر وتعقبه لذة الذكرى . وكان
يذكر تلك الأيام والليالي جيداً
حتى التافه من حوادثها . واستمر
على تلك الحال بين العمل واللغو
حتى التقى بالفتاة « جوتي » وكانت
امرأة مدرس صغير في مدرسة
ابتدائية ، وكان الزوج فقيراً
يكفيه مرتبه كمعظم أبناء صنمته

الذين تستغلهم الحكومة ليخرجوا رجال المستقبل ،
وهم يموتون جوعاً ، ويلاقون الويلات من شظف
العيش . ولكن جوتي .. ما أحلى هذا الاسم في فمه فقد
كان يتلمظ إذ ينطق به كأنه يحسو خيراً أو يستوعب
قطعة من الحلوى المحشوة بالجوز واللوز عند ماروي لي
قصتها وقصته بنفسه قبل موته بأيام قليلة قال : لم
تكن محبوبي جوتي جميلة وصغيرة فحسب ، بل كانت

(اشتهر هذا الكاتب الذي نشأ في
مدينة كييف ، عاصمة مقاطعة بادولي
بدرس أعماق النفس البشرية ، والأحاطة
بالعوامل النفسية التي تنتج عن تغير
أحوال الفرد بفعل القضاء والقدر
وهو يعتقد أن الإنسان أداة عاجزة
و « عجينة لينة » في يد الفلك المدار
فهو ليس ملك نفسه ، وليست إرادته
بنافعة ولا بشافعة إذا تحكمت إرادة
عليه . وقد وضع قصصاً طريفة تؤيد
نظريته ، ونشر بعضها في مجلات
برافدا ، و « ذرفي دنيا » وفي
مجموعة صغيرة دلت على علو كعبه في
فن القصة ، واسكن اللبنة عاجلته في
منتصف العقد الثالث في عام ١٩٢٢
وهذه القصة من خير ما كتب)

كان صديق بوريا مقاولاً
وفناناً وقد درس صبغة العمارة
على أبيه ، فقد كان معماراً شهيراً
شاد بعض قصور النبلاء وشارك
في رفع قوائم كنيسة سانت
أندرية في ساراتوف على نهر
المولجا . وكان له مال وفير ورث
بعضه عن أبيه وحاز بعضه بجده
وكده . فنشأ في العز والترف ،
وعاش عيشة راضية سعيدة .
وقضى شبابه في بطرسبرج عاصمة
القيصرية ، وكانت أجل المدن
في نظره ، فكان شديد الإعجاب

بها ، يصفها بأنها ثمرة خير قران بين المعدن والرمس
والماء ، ولم يوفق البنائون في أنحاء العالم وفي كل
العصور إلى ما وقفوا إليه في تشييد قصورها ومد
جسورها وتزيين طرقها ولا سيما برسيكتيف نيقسكي .
فكان بوريا يعيش سعيداً بين عمله وبين إعجابه بمسقط
رأسه ومدينة أحلامه ، غير مكترث بما كان يقع
في قصورها وسجونها وحصونها من الظالم ، يرفه

كان حاضراً لما غير حضوره موقفتنا ! نعم كنت أحبها على الرغم منه ومنها ومن العالم أجمع . لم يكن قدها ولا جمال وجهها وعينيها ولا رخصة أناملها ويديها ولا إبداع سماوتها هي التي فتنتني وحدها ، بل صوتها أيضاً ... صوتها ... كان هذا الصوت مزيجاً من الموسيقى وتغريد البلابل وهزات النسيم وسحر النغم الغامض وحنان الأم ، فاجتذبتني قبل أن أفيق من غشيتي لدى رؤيتها . لقد تمثلت لي فيها الأنوثة الكاملة وأردت في لحظة جنونية أن أرزق منها بنلام . لقد صرخت الطبيعة في أذني ، وتحرك كل ساكن في كياني ، وفي لحظة أخرى عدت إلى نفسي فاحتقرت نفسي لانغماسي في الشهوات البخسة ، ورأيت ضرورة التغيير قبل أن أنبس بكلمة ، لأصبح رجلاً جديداً جديراً بحبها ، ولا بد من أن أطلق ماضي حياتي الملوثة بالدنايا قبل أن أفوز بيدها . هل تتخيل أن هذه المعجزة تم في دقيقة واحدة على يد امرأة صغيرة ؟ ولكن المعجزة تمت ، فإن جوتي بادلتي حيي ؛ ولم يكن الفقر وحده سبب مطاوعتها إياي وتلبيتها نداء قلبي — لأنها كانت مستورة — ولم يكن نداء الجنس بالدافع الوحيد لها — لأن زوجها كان شاباً — وقد قالت لي إنها لا تشعر بالخيانة الزوجية ، لأنها أحبت باخلاص ، وإن الذنوب لا يشمر بها إلا المرغم على اقترافها . أما الحب الطاهر ولو كان مشوباً بالتسليم فلا يشمرها بالخطيئة ، فقلت لها : يا جوتي الصغيرة ، يا جوتي الحبيبة ، يا حلم الملائكة ورمز هيلانة الهاربة في سبيل باريس الفارس الجليل ، كيف تقولين ذلك ؟ إنه ذنب ضد عقيدتنا ... فنظرت إلى نظرة قصيرة ثم أغضت ... هل هو عتاب أم تكذيب ، أم تغليب إرادة الحب على إيمان القلب ؟ لست أدري ! اللهم اغفر ذنب حبها إياي فقد أحبتني

فأت قدره نادرة على تنظيم الحياة وتدير الدار ، حتى تمكنت من مطاردة الفقر ومحاربه بالفطنة . فكانت نبد النداء والعشاء ، ولكن جسمها كان دائماً نظيفاً منظرأ . وتبدو أناملها التي تمارس الطهي مرتين في النهار رخصة دقيقة لم يعلق بها أثر من آثار النار أو الدسم ؛ وكان شعرها أسود لامعاً ، أما عيناها فنبهان من منابع الجمال . كيف أصفهما وهما بلون القطيفة الخضراء وحولهما إطار بلون الشهد الذهبي ؟ أما ثيابها فقد كانت فتنة الفنان كأن مصوراً يفكر ثم يتسكّر ، ثم يخرج فكرته ؛ فهي ثياب رخيصة ولكنها متقنة بل إلى ما فوق الاتقان . وهي التي علمتني أن الثوب ليس بثمن قماشه ولا بلون رسومه ولكن بدقة صنعه وتطريزه . كانت على فقرها محسودة من ربات الحجال من طبقة الأغنياء ، فنجحت تلك الفاتنة في أن تعيش بالخيال وجملت من حياتها وحبا حلماً رائماً . فلما رأيتها أثناء زيارة فنية في بيتها الصغير في شارع پوشكين في الحط الرابع في الدور الأعلى من العمارة رقم ١١٧ ، نسيت نفسي ونسيت وجه الدفترنيك (البواب) الدميم الذي لم أر أقبح منه في حياتي .. لقد نسيت نفسي حقاً ونساءلت أني الأرض أنا أم في السماء ؟ وأحسست أنني تغيرت في طرفة عين ، وصرت رجلاً آخر ، لأحب سواها ولا أفكر إلا فيها ، ووهمت أنها لم تخلق إلا لتسعدني ونسيت أنها متزوجة ، وأن لها رجلاً آخر يعاشرها ويسمى على رزقها ورزقه . وغاب عني شبجه وفكرته وصار في ذهني اللهب كأنه شخص خيالي لا وجود له في الحقيقة !! هل هذا هو ما يسمونه الحب للوهلة الأولى ، أو دقة الصاعقة ؟ لا أدري . والعجب في أمرنا أنها هي الأخرى أحبتني منذ تبادلنا النظرة الأولى ؛ وكان زوجها غائباً بالطبع ، وفي ظني أنه لو

وأنتذنتي . عجبا ! هل يحجو ذنب واحد ذنوباً جمة ؟
 هذا هو الذي حدث . فإني بعد حبها أصبحت بريثا
 كالطفل . لقد أحبتني لأنني كنت مرحاً وكنت
 غنياً فكنتها من التمتع بما كانت محرومة منه من
 ملذات الحياة . صحبتها إلى السارح الراقية وأسمعتها
 شليابين يعني ، وكأرتينا دمنسكي تثل ، وأريتها ايزبدورا
 دنكان ترقص ، وسقيتها كئوس اليبيرمنت والقودكا
 الغالية والبندكتين اللذيذ بعد العشاء في مطعم
 بورتريف ، ولم تكن تحلم بأن قدمها تطلآن أرضه ؛
 ورأت انعكاس أضواء المدينة على نهر النيقا ، وتلاؤ
 أنوار قصر الشتاء على الجليد . وخلوت بها في بيوت
 جميلة ، فكانت تقول لي : « إن قلبي يتحدثني يا بوريا
 العزيز بأن هنأى بك قصير الأجل ، ولكن لا عليك
 فقد حيت واستمتعت » ولا أستطيع أن أذكر
 لك كل ما رأيته وسمعته منها فلم أحفظ بصورة من
 صورها التي صنعتها بنفسى في الحداثق وفي ظل
 الأشجار وعلى موائد الطعام ولم أستبق رسالة من
 رسائلها ، فقد سلمتها إليها يدأ بيد ، كالمرف الساند
 في زمنا ، فإن العاشق لا يحفظ رسائل معشوقته
 المتزوجة ...

ولكن كل ذلك انتهى فجأة وأنا المذنب الملو
 حقاً فقد بدأت بالقطيعة ولا أدري ما السبب ، سوى
 رذيلة اللل من الشيء الواحد ، وبطر الرجل حيال
 المرأة الخاضعة ، وغريزة الزهد فيما يملك . فإن النفس
 تنزع من ظلام الجحود أسباباً للفرقة . لقد تألت
 لفراقها وشمرت بطن الخناجر عند ما قالت لي لى
 لقائنا الأخير : « ألم أنتبأ بأن سعادتنا قصيرة الأجل ؟
 إنك مثل كل الرجال ، وإن لم أكن عرفت سواك ،
 فأنت تنبذني بعد أن فرغت من غايك . وأصبحت
 لا تقيم لي وزناً ، ونسيت كل عهدك . لقد سلكت

السييل التي يسلكها أمثالك ، فأنا لا ألومك ،
 ولكننى أحبيتك وصدقتك ولا أندم على حبك ،
 ولا أستطيع أن أستعطفك أو أحرك شفقتك فليس
 في وسعك أن تحبني بعد أن زهدت في ؛ وليس في
 وسع أعظم الرجال أن يقدم الكرامة على العاطفة
 فإن ملاكك عند وصالك إذا انتهى الحب يكون أقل
 لى من عذابى بعد هجرك . لو كنت امرأة أخرى ..
 لو كنت عذبتك وأذقتك لوعة الدلال والصد ،
 وبعتك صفاء قلبى غالياً ، لبقيت طول حياتك على
 حبي ؛ ولكن طبيعتى لا تتغير ، وقد جدت لك
 بنفسى منذ أحبيتك فكانت عاقبتى مرارة البعد . لقد
 أفسدت حياتى يا بوريا ، فلن أصلح لأكون زوجة ،
 بل لن أصلح للفساد بعدك ؛ فإما راهبة وإما منتحرة ،
 فأيهما يحلو لك ؟ أفنتى في هجرى كما أفتيتنى في حبي .
 قل بالله عليك ولا تضن على بنصحك » فكانت
 كلماتها كوخز السنان في قلبي ، وكانت الدموع لا
 تكفى لتمحو ألى ، كما كان الرجوع إلى سابق عهدنا
 مستحيلاً بعد أن انمحق العقد الذى كان يربطنا ،
 وانتثرت كلماته الممزقة فوق رمال القطيعة المجذبة
 كالصحراء ، فرجعت إلى صديقى كرنكو بيليانوف
 - قاتله الله ! - فقد كان فاسقاً مستهتراً ، وكنت هجرته
 منذ عرفت حبيبتى المخلصة جوتى . وقلت له اسمع :
 إنها تفندرنى بالندم ، زاعمة أنني لن أجد سواها فيمن
 يماثلها من النساء . فقال لي : كلهن يقلن هذا القول
 لاستبقاء الرجل المحبوب ؛ أما إذا فرغت قلوبهن من
 حبه ، فلن يمرنه أقل لفته ، ولا يشغفن عليه ولو تمرغ
 فى تراب أقدامهن ولو تمرقت أحشاؤه أمام أعينهن ،
 الأولى لك يا صديق أن تعف عن الطعام ونفسك
 تشبهه . أنظر هنا يا بوريا . أنظر هنا ، الأولى لك أن
 تبدأ بالانصراف قبل أن تفاجئك هى بالهجر -

فأحدث الخبيث بيليانوف في ذهني صورة قبيحة
قائله الله ! ليتني ما أسكرته فقد صار بعد الثودكا
أسلط لساناً وأقبح لفظاً وأجراً على الكلام الفارس .
يا لك من عدول لثيم يا بيليانوف .. لم يكن اللثيم خالياً
من الأغراض . فقد كنت هجرته فيمن هجرت
من الأصدقاء بعد حبي إياها ، وقد كفتني الاجتماع
به وبرفقائه في الحانات والملاهي والمغاني الصاخبة
فقننت بها دون كل الناس . فكان يروق له أن
يستردني لأعود سيرتي الأولى . أليس هذا عجيباً ؟
لقد كان يفار منها وهو لا يعلم ذلك ، أو يعلمه ويخفيه
عني ليظهر أماًى بمظهر الناصح المخالص
فقلت له قبل أن يصيبه الصداق :

— ولماذا لا تنصح لي أن أتزوج ؟ فقال : آه .
الزواج ! هذا شيء آخر . دعنا نخالص أولاً من
الخليلة ، حتى نبحث عن الحليلة

قائله الله وجميع القديسين ! لقد كان جوابه
حاضراً وبديته سريعة فأقنعتني قبل أن يصيبه صداق
الثودكا المحتم . وصحت عزيمتي على هجرها فحلت بين
نفسي وبينها وأنا على أشد الألم ، فتغلبت في النهاية
بعد أن ذقت الأمرين . فقد كانت صورتها لا تفارقني
في الليل والنهار ، وكنت أحلم بلقائها ووصلها وأسمع
أنيها كأنها ضجيعتي ، وأتذوق حلاوة لمسها وهي
بعيدة عني حتى لقد هممت المرة بعد المرة أن أثوب
إليها ، وأعود راكماً بين يديها

وتحليت فرحها إذ ذاك فكادت أجن من الوجد
ولسكنني قاومت وقاومت حتى فزت بالنسيان ، ولست
أدرى بالدقة كيف عشت بعد هجرها ؛ وتلهيت
بالانكباب على عملي ، وقطعت علاقتي ببيليانوف
وأشباهه وطلقت حياة الرقص والخمر ونقضت عن
كاهلي حياة الفجور كما ينفض الشخص ثيابه في يوم مطير
وتفرغت للبناء وجمع المال فربحت فوق ثروتي
أرباحاً طائلة ، وصرت المقاول المعروف بالمهارة في

إن الحلب حرب بين الجنسيتين يا أخى ، ومن المهارة
في الحرب أن تنسحب من الميدان قبل أن ينال منك
خصمك أو يجهز عليك ، والإجهاز هنا أن ينتهي
حربها بك وأنت متعلق بها فالويل لك ثم الويل لك .
والعلم أننا جميعاً نفعل مثلك : نغازل النساء المتزوجات
ثم نودعهن وداعاً لا لقاء بعده . فافعل كل ما يفعله
أبناء جيلك ولا تحسب أنك تذهب في حقها .. وإذا
كنت تعلم أنها فقيرة ، وأنها منسبثة بك لغناك ووفرة
مالك فلا بأس من أن تعوضها بنفحة أو بسطة
كف تستعين بها على نسيانك وتجديد حياتها في
ظل زوجها الأنوك !

وعندما سمعت منه هذه الكلمة قلت له : احرص
أيها النذل ؛ فإنها ليست من هذه الطبقة وليست
على هذا الطراز . إن هذه الطفلة الوادعة تنقلب دُباً
لتنشب أظفارها في وجهي إذا قدمت لها المال ...
ثم أنت تغتاب رجلاً جنيتُ أنا عليه ! فغضب
بيليانوف . وقال لي : أنا نذل .. ؟ أنت حمار ، لن تستريح
حتى تهق . فأعجبتني النكتة وضحكت وصالحته . هذا
العدول الخبيث ببيليانوف . اصطليحنا وسقيته فنيته
من الثودكا الرخيصة الثمن لأنني كنت أكره أن
أراه يشرب النوع الذي كانت جوتي تشربه معي
فأردت تسميمه لأجل الذكرى . وبعد أن تلذذ
ببيليانوف بالخمر ، وقبل أن يصاب بالصداق المحتم قال لي :
أنا أعلم يا بوريا أنك رجل شريف ، تكره
المسرة وتأتي المثل في السداد وتبغض خيانة الأمانة
وترفض أن تهضم حقوق الغير ، وهذه عادات كسبتها
بممارسة أعمالك ، ولكن أن تستمر على حب امرأة
أحبها غيرك ، هذا الذي لا تطيقه بطبعك . إنها
كالنواة التي يلفظها من أكل الفاكهة ، أرضى أن
نعمش على النوى ؟ إنها متزوجة كما تقول ، فلها
رجل آخر لا تقدر على رده ...

وعملت على الاناقة في شخصي والاستقامة في خلقى وبلغت ذروة الانتصار المادى وتكدست أموالى في المصارف ووثقت بي الشركات ورجال الأعمال وتمكنت من التصرف في ملايين الروبلات وانصلت شهرتى بفنلندا فبنيت للقيصر قصراً على شاطئ البحر وأعددت له مرسى ليخته الذى كان يعتمد عليه في فراره . أنعم تسارسكوى سيلو ؟ نعم ! أنا الذى أشرفت على بنائه وسافرت إلى الغرب . وزرت إيطاليا وفرنسا ودرست كل طراز للبناء القديم والحديث . وأخيراً حننت إلى البيت والثوى والركن الركين والرجولة المطمئنة الآمنة بالمال واليسر والرخاء المضمون . فتزوجت من فتاة جميلة ورزقت أطفالاً وبينهن بنت أسميتها جوتى (لأجل الله كرى التى كانت تتجدد) ثم جاءت الحرب العظمى واضطربت الأحوال وارتبكت الشؤون ونفخ فجأة في صور الثورة . وصار كل شئ إلى الفناء القدور ، إلى الدم . وحل الفصل محل النجاح وماتت الزوجة وتشتت شمل الأطفال ، فلا أدري أين هم . وقابلنى ييليانوف وكان لا يزال يسكر ويلهو ويعتمد على الغير في نفقاته ، فلما رآنى وسمع قصتى قال : لا تبتئس فإن جان جاك روسو كان له خمسة أطفال أتى بهم جميعاً في ملجأ اللقطاء ! لست أعلم منه ولا أعقل ولا أغنى . لقد كان فيلسوفاً كبيراً وألف أحسن الكتب ، وأنت ، ما أنت إلا مقاول ومعمار . وإن العالم كله أصغى إلى تعاليمه وهو لا يعلم إن كان أولاده أحياء أم ذهبوا إلى العالم الآخر ، إن كان هناك عالم آخر ؛ المسألة ترجع إلى اعتقاد روسو . فسُرّى عنى وأنا أعلم خبثه وقبلت كلامه على علاته بحكم اضطرارى لقبوله . وعدت إلى شرب الخمر ولعب القمار من جديد ثم مارست أعمالاً فأحرقت الأخضر واليابس

وقضت على البقية الباقية من مالى . وغادرتى التوفيق وابتعد عنى أصحابى وعادانى أشدهم لؤماً ، ماعدا ييليانوف ، لأنه لم يكن يعطينى شيئاً ولا يضيره أن يأخذ من غيرى . وأتتني في المجتمع الذى كنت يوماً من سادته ، ولكن الحالة الجديدة لم تجعل سيداً ولا عبداً . وكان يعزبنى أن القيصر وولى عهده والقيصرة وبناتها لم يكونوا أسعد منى حظاً ، ولكن هذا القول كان وهماً ؛ ولكننى كنت أتوهم ما هو أعظم منه وهو أننى سأعود يوماً ما إلى الثراء بعد الحاجة ، واليسر بعد العسر ، إذا نفضت عن كفتى غبار اليأس القاتل . وصورة الثروة التى أستردها لما تفارقنى ، وكانت تحارب أمام عيني شبح الفقر الذى يهددنى ، فكنت أحسب أن لى قريباً مجهولاً سوف يهلك فى أمريكا وتوافينى ثروته على عجل ، أو أن يكون لى كنز دفين فى أحد البيوت التى بنيتها . وتملكت هذه الفكرة نفسى فعاد إلى بصيص من الرجاء وظفرت بصفقة رابحة عدتها فاتحة الخير وبداية الفرج بعد الضيق . وكان الجنود المائدون من الميدان يملأون الحانات ، ولا سيما فى حى بطرس وبولس بجوار الحصن الشهير ، فغشيت ليلة إحدى هذه الحانات التى كانت مكتظة بالشاريين من عسكر الدولة التى بدأت تتلون بلون الثورة ، وكانت ضجة الجنود وهم يتجرعون القودكا تعلو وتتضخم وتهز أركان المكان كما انمقدت فى سقفه الأسود سحب من دخان طباقهم ، وأخذوا ينظرون إلى شرراً لأننى لم أكن أختال فى ثياب كشيابهم ، فطلبت من الساقى قنينة من القودكا لأحرف أنظارهم عنى فتغير نظرم إلى من الحقد إلى السخرية ، كأن الخمر كان وفقاً عليهم .. ولكنهم فى الحقى كانوا يتساءلون فيما بينهم عن علة قعودى ، لماذا لا أخوض غمار الحرب التى خاضوها ، وأبقى فى العاصمة منعماً بالحرية

الماضي الحالك .. من مخزن التصاور القابيع في ذهني
كأنه صراف بخيل ... لا يقدم الأشكال والرسوم
إلا بحساب أى حساب

لقد تجاهلتنى وابتعدت عني وثابت على
الترحيب بأضيافها حتى لم يحرم أحد من الخطوة منها
ببسمه أو نظرة عطف مصطنع أو كلمة عذبة أو وعد
بلقاء قريب . وكانت « خطة السير » قد ساقها
مصادفة أو بقصد غامض نحو المنضدة التي طرحت
عليها أعباء همى ووهى وهددت لسيها بساط خسارتى
وندى ، فلما دنت منى حدثت في ، ودهشت ، ثم
تراجعت وقالت لى وهي تضحك ضحكة الألم والسخرية
والندم والحجل ، ضحكة لم تكن تعرفها جوتى الأولى ،
وأقنتها هذه الثانية وقالت لى :

— أنت هنا ؟ فى الحانة ؟ لقد التقينا . إن
العالم صغير ، ولا بد للأحياء أن يجتمعوا مهما
فرقت الأيام بينهم . أنظر إلى ماصنعت بحق لك أن
تفتخر . أنا مخلوقتك ، بل قل مخلوقة حبك ، إن
شئت . فأحيت رأسى الماء وحسرة فقالت لى :

— إرفع رأسك يا بوريا ولا تخجل . إن الصانع
لا يخجل من صنعه ، وأنا صنعة يديك . لم يكن
ينقصنى إلا أن أراك ، وها أنا ذى قد رأيتك . ثم مدت
لى يدها — تلك اليد التي طالما قبلتها وبللتها بدموعى
وبقيتنا هكذا برهة لا أدرى هل طالت أم قصرت
لأن نفسى كانت فريسة الانفعال والعواطف ورأسى
كأحد مصانع الأسلحة والدخائر ؛ ثم شعرت أنها
تسترد كفها من يدي ، كما لو كانت حلية تخشى
عليها من سارق يقلبها بين كفيه ليسلبها ، وحولت
عينها عن عيني وقالت : الوداع يا ... بوريا

فى صباح تلك الليلة عثروا فى نهر النيفا على جثتين
الأولى لرجل فى الأربعين من عمره والثانية لامرأة
فى مقتبل الشباب . بوريا وجوتى !

محمد لطفي جمعة

والسلامة ؟ ولو علموا الحرب التي أعانها لأشفقوا
على قاتها كانت أحمى نارا وأحرق أوارا من حرب
القطابل ، فإن الموت كان خيرا مما أنا فيه . وطالما
حدثت بطل تولستوى « البيت الحى » ولكن أنى
لى ببسمة الموت المنقذ ؟ وبيننا أنا مستغرق فى وحدتى
والألم يحز فى نفسى ، والندم على دخولى هذا المكان
يكاد يمزق أحشائى ، وإذا بامرأة ظهرت تحتال
وتبتخر وتضىء وتتلأأ كالشوك فى الدرى فى
ظلام تلك الحفرة المدهم ؛ كانت تلبس ثوبا من الحرير
الأحمر يماثل ثياب ضباط الفرسان وفى يدها عصا
صغيرة من العاج . فلما دخلت ساد السكون واتجهت
الأنظار إليها ثم أخذت تنظر وتنقش ما طاب لها من
الشبان والكهول وتوزع الضحك والكلمات
العذبة والنظرات الفاتنة ذات اليمين وذات اليسار .
وجأة انطلقت الألسن بعبارات الإعجاب وتبدل
العبوس بالابتسام والضحك ، وأخذوا يستعطفونها
ويقدمون لها الأقداح ؛ وقد ينهض أحد هؤلاء
الجنود الظمآن إلى الحب فيلمس يدها ثم يقبض عليها
ويضع على أناملها قبلة حارة . وكانت المرأة تقابل ذلك
كله ببشر وسرور ومرح ، وترحب بألفاظ الحب
بنظرة دلال ، وتبادل بعض الضباط نكات لازعة
ولكنها فى حدود الأدب ، فانقلبت الحانة الجهنمية
روضة من رياض النعيم . وعلى غير انتظار رأتنى .
والتفت عينا ، فأعرضت عني أولاً .. ونجهم وجهها
وتغيرت حالتها . وفى شبه حلم خفيف عرفتها هى ..
جوتى .. لقد أخبرونى أنها ماتت فى جزيرة القريم
منذ ثلاثة أعوام بمرض الصدر ... كذبوا وهاهى
ذى على قيد الحياة ، جميلة رائعة ، ولكنها تبدلت .
صدقوا ... إن جوتى التي عرفتها وأحببتها وقاطعتها
ونسيتها قدماء ، أما هذه فامرأة أخرى وأسفاه ...
إننى لم أستطع أن أنتزع صورتها الأولى من ظلام